رسالة شرعية عالمية

معهد المنهج الدراسي الميسر

مقررات معهد

المنهج الدراسي الميسر

١٠٠

فائدة

من القواعد الأربع

تأليف

أبي عبد الله محمد المصنعي

وفقه الله تعالى


رسالة شرعية عالمية
معهد المنهج الدراسي الميسر
من المستــوى الأول إلى الثــاني عشــر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

المقدمة

الحمد لله الكريم المنَّان، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ﷺ، أما بعد:

فهذا شرحٌ على (القواعد الأربع)، مسلسل في فوائد متتابعة، وهو أسلوب جميل ويقرب العلم، وقد سلكت فيه الاختصار.

والحمد لله أولاً وآخراً، وظاهراً وباطناً، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وحسبنا الله ونعم الوكيل.

كتبه أبو عبد الله المصنعي ١٤٣٢هـ

وفقه الله تعالى

****

القَوَاعِدُ الأَرْبَع(١)

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أَسْأَلُ اللهَ الكَرِيمَ ، رَبَّ العَرْشِ العَظِيمِ: أَنْ يَتوَلَّاك في الدُّنيَا والآخِرَةِ .

وأَنْ يَجْعَلَكَ مُبَارَكاً أَيْنَمَا كُنْتَ. وأَنْ يَجْعَلَكَ مِمَّن إذا أُعْطِيَ شَكَرَ ، وإذا ابتُلِيَ صَبَرَ، وإذا أَذْنَبَ اسْتَغْفَرَ، فَإِنَّ هَؤُلَاءِ الثَّلَاث عُنْوَانُ السَّعَادَةِ.

اِعْلَم أَرْشَدَكَ اللهُ لِطَاعَتِهِ: أَنَّ الْـحَنِيفِيَةَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ: أَنْ تَعْبُدَ اللهَ وَحْدَهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّيْن وبِذَلِكَ أَمَرَ اللهُ جَمِيعَ النَّاسِ وخَلَقَهُمْ لهَا، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ٥٦﴾ [الذاريات:٥٦]. فَإِذَا عَرَفْتَ أَنَّ اللهَ خَلَقَكَ لِعِبَادَتِهِ: فَاعْلَمْ أَنَّ العِبَادَةَ لا تُسَمَّى عِبَادَةً إلاَّ مَعَ التَّوحِيدِ، كَمَا أَنَّ الصَّلاَةَ لا تُسَمَّى صَلاَةً إلاَّ بالطَّهَارَةِ، فإذا دَخَلَ الشِّركُ في العِبَادَةِ فَسَدَتْ، كالحَدَثِ إذَا دَخَلَ في الطَّهَارَةِ. [كما قال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللهِ شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ﴾ [التوبة:١٧](٢)].

(١) والمتن مقابل على ثلاث مخطوطات: مخطوطة مكتبة عنيزة (أ)، ومخطوطة الشيخ عبد الله الشريان نسخ الشيخ إبراهيم بن محمد الضويان ١٣٠٧ هـ رحمهما الله تعالى (ب)، والثالثة مخطوطة الشيخ عبد الله بن عبد الرحمن بن سلمان. خزانة طارق الحويطر نسخ عبد الله بن محمد الريجان رحمهم الله تعالى (ج).

ولنا عليه شرح مسموع وآخر مطبوع.

(٢) ما بين المعقوفين زيادة من (أ) (ب) (ج) و (د).

فَإِذَا عَرَفْتَ أَنَّ الشِّركَ إِذَا خَالَطَ العِبَادَةَ أَفْسَدَهَا ، وَأَحْبَطَ العَمَلَ ، وصَارَ صَاحِبُهُ مِنْ الخَالِدِينَ فِي النَّارِ: عَرَفْتَ أَنَّ أَهَمَّ مَا عَليّكَ مَعْرِفَةُ ذَلِكَ ، لَعَلَّ اللهَ أَنْ يُخَلِّصَكَ مِنْ هَذِهِ الشَّبَكَةِ وهِيَ: الشِّركُ باللهِ، [(١)] وذَلِكَ بِمَعْرِفَةِ أَرْبَعِ قَوَاعِدَ ذَكَرَهَا اللهُ تَعَالَى فِي كِتَابِهِ.

❊ ❊ ❊ ❊

[الأولَى(٢)]

أَنْ تَعْلَمَ أَنَّ الكُفَّارَ الذينَ قَاتَلَهُم رَسُولُ اللهِ ﷺ مُقِرُّونَ بأَنَّ اللهَ تَعَالَى هو الخَالِقُ الرَّازقُ المُحْيِي المُمُيْتُ المُدَبِرُ جَميعَ الأُمُورِ ، ولَمْ يُدْخِلْهُم فِي الإِسْلَامِ .

والدليلُ قَولُهُ تَعَالَى: ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ ﴾ [يونس:٣١].

❊ ❊ ❊ ❊

(١) [الذي قال الله تعالى فيه : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾] [النساء:١١٦]
ما بين المعقوفين ليس في (أ) (ب) (ج)، وهي مذكورة في عامة النسخ المطبوعة.

(٢) كذا في المخطوطات بدون ذكر كلمة (القاعدة).

القاعدة الثانية

أَنَّهُمْ يَقُولُونَ: مَا دَعَوْنَاهُمْ وَتَوَجَّهْنَا إِلَيْهِمْ إِلا لِطَلَبِ الْقُرْبَةِ وَالشَّفَاعَةِ، [نُرِيدُ مِنَ اللهِ لا مِنْهُمْ، لَكِنْ بِشَفَاعَتِهِم والتَّقَرُّبِ إِلَيْهِمْ][(١)].

فَدَلِيلُ الْقُرْبَةِ؛ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ۚ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَـٰذِبٌ كَفَّارٌ ۝٣﴾ [الزمر:٣].

وَدَلِيلُ الشَّفَاعَةِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَـٰٓؤُلَآءِ شُفَعَـٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[(٢)] [يونس:١٨].

وَالشَّفَاعَةُ شَفَاعَتَانِ: شَفَاعَةٌ مَنْفِيَّةٌ، وَشَفَاعَةٌ مُثْبَتَةٌ.

فَالشَّفَاعَةُ الْمَنْفِيَّةُ: مَا كَانَتْ تُطْلَبُ مِنْ غَيْرِ اللهِ فِيمَا لا يَقْدِرُ عَلَيْهِ إِلا اللهُ؛ وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لاَّ بَيْعٌ فِيهِ وَلاَ خُلَّةٌ وَلاَ شَفَاعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [البقرة:٢٥٤].

وَالشَّفَاعَةُ الْمُثْبَتَةُ: هِيَ الَّتِي تُطْلَبُ مِنَ اللهِ.

(١) سقطت من المطبوع، وهي في المخطوطات الثلاث.

(٢) في (أ) (ج) لم يكمل الآية.

وَالشَّافِعُ مُكَرَّمٌ بِالشَّفَاعَةِ، وَالْمَشْفُوعُ لَهُ مَنْ رَضِيَ اللهُ قَوْلَهُ وَعَمَلَهُ بَعْدَ الإِذْنِ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة:٢٥٥].(١).

* * * *

القاعدة الثالثة

أَنَّ النَّبِيَّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- ظَهَرَ عَلَى أُنَاسٍ مُتَفَرِّقِينَ فِي عِبَادَاتِهِمْ، مِنْهُمْ مَنْ يَعْبُدُ الشَّمسَ والقَمرَ ومنهُم الْمَلائِكَةَ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَعْبُدُ الأَنْبِيَاءَ وَالصَّالِحِينَ، [ومِنْهُم مَن يعبُدُ الأَصْنَامَ(٢)]، وَمِنْهُمْ مَنْ يَعْبُدُ الأَشْجَارَ وَالأَحْجَارَ، وَقَاتَلَهُمْ رَسُولُ اللهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وَلَمْ يُفَرِّقْ بَيْنَهُمْ؛ والدليل قوله تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾ [الأنفال:٣٩].

وَدَلِيلُ الشَّمْسِ وَالقَمَرِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾﴾(٣) [فصلت:٣٧].

وَدَلِيلُ الْمَلائِكَةِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ﴾ [سورة

---

(١) في (ج) ذكر أول آية الكرسي.

(٢) ما بين المعقوفين ليس في بعض النسخ.

(٣) في (أ) و(ج) لم يكمل الآية.

سبأ:٤١]، [﴿ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا ﴾ [آل عمران: ٨٠]. (١)

وَدَلِيلُ الأَنْبِيَاءِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ ۚ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾﴾ [المائدة: ١١٦].

وَدَلِيلُ الصَّالِحِينَ، قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴾ [الإسراء: ٥٧].

وَدَلِيلُ الأَشْجَارِ وَالأَحْجَارِ، قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ ﴿٢٠﴾﴾ [النجم: ١٩-٢٠].

وَحَدِيثُ أَبِي وَاقِدٍ اللَّيْثِيِّ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- قَالَ: خَرَجْنَا مَعَ النَّبِيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- إِلَى حُنَيْنٍ وَنَحْنُ حُدَثَاءُ عَهْدٍ بِكُفْرٍ، وَلِلْمُشْرِكِينَ سِدْرَةٌ، يَعْكُفُونَ عِنْدَهَا وَيُنَوِّطُونَ بِهَا أَسْلِحَتَهُمْ، يُقَالُ لَهَا ذَاتُ أَنْوَاطٍ، فَمَرَرْنَا بِسِدْرَةٍ فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ اجْعَلْ لَنَا ذَاتَ أَنْوَاطٍ كَمَا لَهُمْ ذَاتُ أَنْوَاطٍ فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " اللهُ أَكْبَرُ، إنهَا السَّنَنُ، قُلْتُمْ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ كَمَا قَالَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ لِمُوسَى: ﴿اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾ لَتَتَّبِعُنَّ سُنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ "(٢).

* * * *

(١) هذه الآية ساقطة من بعض النسخ، وغالب المخطوطات لم تذكر الآية التي قبلها.

(٢) في (أ) و(ج) ذكر الحديث إلى (كما لهم ذات أنواط).

القاعدة الرابعة

أَنَّ مُشْرِكِي زَمَانِنا أَغْلَظُ شِرْكًا مِنَ الأَوَّلِينَ، لأَنَّ الأَوَّلِينَ يُشْرِكُونَ فِي الرَّخَاءِ، وَيُخْلِصُونَ فِي الشِّدَّةِ، وَمُشْرِكُو زَمَانِنا شِرْكُهُمْ دَائِمٌ فِي الرَّخَاءِ وَالشِّدَّة؛ وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَإِذَا رَكِبُواْ فِي ٱلْفُلْكِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ [العنكبوت:٦٥]،[(١)] وَاللهُ أَعْلَمُ. [وَصَلَّى اللهُ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعلى آله وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ](٢).

❊ ❊ ❊ ❊

(١) في (ب) زيادة [فهل هذا الداعي عابد، والدليل قوله تعالى (وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ (٥) وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ)] والأكثرية من المخطوطات والمطبوعات بدونها، فلذلك لم أثبتها.

(٢) هذه زيادة من (أ) و (ج).

[مقدمة القَوَاعِدُ الأَرْبَعُ]

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أَسْأَلُ اللهَ الكَرِيمَ ، رَبَّ العَرْشِ العَظِيمِ: أَنْ يَتَوَلَّاك فِي الدُّنْيَا والآخِرَةِ .

وأَنْ يَجْعَلَكَ مُبَارَكاً أَيْنَمَا كُنْتَ. وأَنْ يَجْعَلَكَ مِمَّن إذا أُعْطِيَ شَكَرَ ، وإذا ابتُلِيَ صَبَرَ، وإذا أَذْنَبَ اسْتَغْفَرَ، فَإِنَّ هَؤُلَاءِ الثَّلَاث عُنْوَانُ السَّعَادَةِ.

اِعْلَم أَرْشَدَكَ اللهُ لِطَاعَتِهِ: أَنَّ الْـحَنِيفِيَةَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ: أَنْ تَعْبُدَ اللهَ وَحْدَهُ مُخْلِصاً لَهُ الدِّيْن وبِذَلِكَ أَمَرَ اللهُ جَمِيعَ النَّاسِ وخَلَقَهُمْ لَها، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات:٥٦]. فَإِذَا عَرَفْت أَنَّ اللهَ خَلَقَكَ لِعِبَادَتِهِ: فَاعْلَمْ أَنَّ العِبَادَةَ لا تُسَمَّى عِبَادَةً إلاَّ مَعَ التَّوحِيدِ، كَمَا أَنَّ الصَّلاَةَ لا تُسَمَّى صَلاَةً إلاَّ بالطَّهَارَةِ، فإذا دَخَلَ الشِّرْكُ فِي العِبَادَةِ فَسَدَتْ، كالحَدَثِ إِذَا دَخَلَ فِي الطَّهَارَةِ. [كما قال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللهِ شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ﴾ [التوبة:١٧].

فَإِذَا عَرَفْتَ أَنَّ الشِّرْكَ إِذَا خَالَطَ العِبَادَةَ أَفْسَدَهَا ، وَأَحْبَطَ العَمَلَ ، وصَارَ صَاحِبُهُ مِنْ الخَالِدِينَ فِي النَّارِ: عَرَفْتَ أَنَّ أَهَمَّ مَا عَليّكَ مَعْرِفَةُ ذَلِكَ ، لَعَلَّ اللهَ أَنْ يُخَلِصَكَ مِنْ هَذِهِ الشَّبَكَةِ وهِيَ: الشِّرْكُ باللهِ، [(١)] وذَلِكَ بِمَعْرِفَةِ أَرْبَعِ قَوَاعِدَ ذَكَرَهَا اللهُ تَعَالَى فِي كِتَابِهِ.

* * * *

(١) [الذي قال الله تعالى فيه : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾] [النساء:١١٦]

ما بين المعقوفين ليس في (أ) (ب) (ج)، وهي مذكورة في عامة النسخ المطبوعة.

الفوائد

أسأل الله تعالى الكريم الرحيم أن ينفعنا وإياكم بالعلم، وأن يوفقنا وإياكم للعمل به والدعوة إليه.

١- مؤلف (القواعد) هو: الشيخ محمد بن عبد الوهاب النجدي رحمه الله تعالى، الإمام المجدد السلفي (ت ١٢٠٦هـ).

٢- سميت القواعد الأربع؛ لأن المؤلف ذكر فيها أربع قواعد، وهذه التسمية لعلها من تلاميذ المؤلف رحمه الله تعالى.

٣- أصل هذه الرسالة جواب أرسله المؤلف إلى بعض محبي الدعوة.

٤- من الدعوة: المراسلة، والمكاتبة، وذلك من هدي نبينا ﷺ، فقد راسل هرقل وكسرى والنجاشي وغيرهم[١]، يدعوهم إلى الله تعالى.

٥- هذه القواعد ملخصة من (كشف الشبهات)، فيُستحسن دراستها قبلها لتكون ممهدة لها.

٦- ابتدأ المؤلف بالبسملة، وهذا مشروع بالكتاب والسنة والإجماع، قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مِن سُلَيۡمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣٠﴾ [النمل: ٣٠]، وفي رسالة النبي ﷺ إلى هرقل: «بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلى هرقل...»، متفق عليه عن ابن عباس رضي الله عنهما[٢].

وأجمع الصحابة على الابتداء في المصحف بالبسملة.

وقال ابن كثير رحمه الله تعالى: «تُستحب في أول كل عمل»[٣].

---

(١) رواه مسلم (١٧٧٤) عن أنس رضي الله عنه.

(٢) متفق عليه (خ ٧) (م ١٧٧٣) عن أبي سفيان رضي الله عنه.

(٣) "التفسير" (الفاتحة).

وقال الحافظ رحمه الله تعالى: «وقد استقر عمل الأئمة المصنفين على افتتاح كتب العلم بالبسملة، وكذا معظم كتب الرسائل»[١].

٧- لم يفتتح المؤلف كتابه بالحمدلة وخطبة؛ لأن المشهور في الرسائل الاقتصار على البسملة، كما في رسائل النبي ﷺ[٢].

٨- حديث: «كل أمرٍ ذي بال...» حديث ضعيف[٣].

٩- معنى البسملة: (بسم) الباء للاستعانة. (بسم الله): أستعين بالله تعالى، والجار والمجرور متعلق بفعل مؤخر تقديره: (بسم الله أكتب)، أستعين بالله على الكتابة. (الرحمن): ذو الرحمة الواسعة. (الرحيم): ذو الرحمة الواصلة إلى الخلق.

١٠- رحمة الله تعالى عامة وخاصة:

فالعامة: تشمل جميع الخَلْق، فجميع النعم والهداية للمصالح المعيشية من رحمته.

والخاصة: تشمل جميع النعم الدينية من هداية وتوفيق وصلاح.

١١- البسملة فيها جميع أنواع التوحيد: الألوهية، والأسماء والصفات، والربوبية.

فالألوهية في لفظ الجلالة (الله) وهو مشتق من (الإله)، ومعنى (الله): المعبود الحق وحده، وهو عَلَمٌ على الباري سبحانه.

والأسماء والصفات: مأخوذة من قوله: (الرحمن الرحيم) فهما اسمان متضمنان لصفاتٍ، وجميع أسماء الله تعالى تتضمن صفاتٍ.

---

(١) "الفتح" (١/ ١١).

(٢) "الفتح" (١/ ١١).

(٣) انظر: "الإرواء" (١، ٢).

والربوبية: مأخوذة من قوله: (بسم الله)، فإن الاستعانة بالله تعالى من توحيد الألوهية، والمعين هو الرب سبحانه، فالإعانة من أفعاله.

وكذلك المستحق للعبادة وحده، والموصوف بصفات الكمال هو الرب وحده.

١٢- ابتدأ المؤلف رسالته بالدعاء للمرسل إليه [وللقارئ وطالب العلم]،

وفي ذلك دلالة على:

أ- التودد والتحبب إلى المدعو أو الطالب من أجل أن يكون أدعى لانتفاعه بالعلم، وقبوله للخير.

ب- أن مبنى العلم والدعوة: التراحم بين المعلم والمتعلم، وبين الداعي والمدعو، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧﴾ [الأنبياء:١٠٧].

جـ- الرفق بالمخالف، واستعمال الحكمة معه؛ ليعود إلى الحق، ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِ﴾ [النحل:١٢٥] الآية.

١٣- من هدي السلف الافتتاح في الرسائل بالدعاء للمخاطب، وهذا مما أهمله كثير من المتأخرين.

١٤- معنى: (يتولاك): يفسره قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [البقرة:٢٥٧]. ﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [آل عمران:٦٨]، ومن أسماء الله الولي: ومعناه: الذي يتولى أمور العبادة، وينصر المؤمنين الحافظ لهم المعين.

فمعنى يتولاك: يحبك، وينصرك، ويؤيدك، ويوفقك، ويعينك على طاعته، وكل واحدٍ له من ولاية الله تعالى بقدر إيمانه وتقواه.

﴿أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٦٢ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ٦٣﴾ [يونس:٦٢-٦٣]، فالولي هو المؤمن التقي.

وإذا تولاك الله تعالى فقد فزت وأفلحت ونجوت في الدنيا والآخرة.

١٥- معنى (مباركاً): البركة من الله تعالى. والتبرك: طلب البركة.

والبركة: هي ثبوت الخير ودوامه ونُمُوُّه[١]. والله سبحانه هو الذي يُنْزل البركة ويثبتها وينمِّيها. وأعظم البركة: بركة العلم بالحق والعمل به.

١٦- معنى (الشكر): ظهور أثر نعمة الله تعالى على لسان عبده، ثناءً واعترافاً، وعلى قلبه شهوداً ومحبة، وعلى جوارحه انقياداً وطاعة.

١٧- والشكر مبني على خمس قواعد: خضوع الشاكر للمشكور، وحبه له، واعترافه بنعمته، وثناؤه عليه بها، وألا يستعملها فيما يكره.

فمن عُدِم منها واحدة اختلَّ من قواعد الشكر قاعدة[٢].

قال تعالى: ﴿أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ﴾ [لقمان:١٤]، هذا بالمقال والعمل. وقوله: ﴿وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾﴾ [البقرة:١٥٢]، هذا بالقلب والقول والعمل.

١٨- معنى: (إذا ابتلي صبر) الابتلاء: الاختبار والامتحان بالضراء، وقد يكون بالسراء، قال تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء:٣٥].

١٩- معنى (الصبر): هو حبس النفس على طاعة الله تعالى [بملازمتها]، وحبس النفس عن معصية الله تعالى [بتركها]، وحبس النفس من التسخط على أقدار الله تعالى المؤلمة.

والصبر واجب بالكتاب والسنة وإجماع الأمة، وهو نصف الإيمان، فإن الإيمان نصفان: نصف صبر ونصف شكر.

---

[١] "البدائع" (٢/ ٤١١)، "عقيدة التوحيد" (ص ٢٣٤).

[٢] "الوابل الصيب" (ص ٦)، "المدارج" (٢/ ٥٧٥-٥٧٦ ط: طيبة).

٢٠- الصبر المحمود: هو الصبر من أجل الله تعالى مع اعتقاد أن الذي وفقه للصبر هو الرب عز وجل، قال تعالى: ﴿ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ﴾ [النحل:١٢٧].

وقال ﷺ: «ما أُعطي أحدٌ عطاءً خير وأوسع من الصبر»، متفق عليه[١].

٢١- معنى: (وإذا أذنب استغفر) أي: طلب المغفرة:

بالقلب: بالندم والعزم ألا يعود إلى المعصية. وباللسان: بالاستغفار والدعاء.

وبالجوارح: بالإقلاع عن الذنب، والإقبال على فعل الحسنات الماحية للسيئات.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ﴾ [هود:١١٤]، ﴿ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ ﴾ [آل عمران:١٣٥]، وفي الحديث: (أتبع السيئةَ الحسنة تمحها) [٢].

٢٢- (السعادة): أصل السعادة: اطمئنان القلب، وراحة البال والبدن لحصول مراده النافع.

ومَن جمع الله تعالى له بين الشكر والصبر والتوبة فقد جمع له السعادة الدنيوية والأخروية، ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴾ [الرعد:٢٨]، ومن فقدها فقد جمع شقاوة الدنيا والآخرة، ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا ﴾ [طه:١٢٤].

٢٣- معنى قوله: (اعلم): أراد المؤلف لَفْت انتباه القارئ والطالب بهذه الكلمة، وهو أسلوب تربوي عظيم، وقد ورد في الكتاب والسنة ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ [محمد:١٩].

والمراد: العلم الشرعي النافع، وهو معرفة الحق بدليله، والعمل به، والدعوة إليه.

والعلم الذي يفيد معرفة ما يجب على المكلف من أمر دينه؛ فقهاً وعقيدة.

---

(١) متفق عليه (خ ١٤٦٩) (م ١٠٥٣) عن أبي سعيد رضي الله عنه.

(٢) رواه الترمذي (١٩٨٧) عن أبي ذر رضي الله عنه.

٢٤- معنى (أرشدك الله): الرشد: حسن التصرف، ويأتي بمعنى: الهُدى، فهو ضد الغي، فيكون معنى الرشد: الاستقامة على الهدى والحق، ومجانبة الغي والضلال.

وأرشدك الله تعالى: دلَّك إلى طاعته، ووفقك للاستقامة عليها، وعافاك من ضدها.

وأعظم الغي: الشرك، والبدعة والمعصية، كما أن الرشد يشمل التوحيد والسنة والطاعة، ويأتي الرشد بمعنى العلم، فهو معرفة الحق والعمل به.

قال الله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ﴾ [الحجرات:٧].

٢٥- معنى (الطاعة): طاعة الله تعالى: فِعْل ما أمر الله تعالى به، وحث عليه في الكتاب والسنة، وترك ما نهى الله تعالى عنه، وحذر منه في الكتاب والسنة.

٢٦- معنى (الحنيفية): وقد فسرها المؤلف بقوله: أن تعبد الله وحده مخلصاً له الدين.

قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾ [البينة:٥].

والحنيف: المقبل على الله، المُعرض عمَّن سواه.

قال شيخ الإسلام رحمه الله تعالى: «فالدين الحنيف: هو الإقبال على الله وحده، والإعراض عمَّا سواه، وهو الإخلاص الذي ترجمته كلمة الحق، والكلمة الطيبة (لا إله إلا الله)»[1].

٢٧- (مخلصاً): الإخلاص: إفراد الله تعالى بالقصد والعمل، فيشمل جميع أنواع التوحيد والاتباع، وهو حُسْن النية، وحسن العمل، المنافي للشرك والبدعة، فلا يكون العمل مقبولاً إلا بالإخلاص لله تعالى ومتابعة شرعه، قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [البينة:٥].

---

[1] "الفتاوى" (٩/ ٣١٩).

٢٨- معنى ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات:٥٦]

الحكمة من خلق الخلق أن يعبدوا الله عز وجل وحده لا شريك له، فمن وفَّى جازاه أحسن الجزاء، ومن أساء وعصى وفَّاه حسابه[١].

٢٩- معنى: العبادة: اسم جامع لكل ما يحبه الله تعالى ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة.

وربنا جل وعلا يحب التوحيد والسنة والطاعة، ويبغض الشرك والبدعة والمعصية.

فما أحبه الله تعالى فهو عبادة له، وما أبغضه فليس بعبادة له، بل هي عبادة لغيره، فصحَّ أن العبادة لله تعالى لا تسمى عبادة إلا مع التوحيد والسنة.

٣٠- معنى (التوحيد): هو إفراد الله تعالى في ربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته.

فتوحيد الربوبية: إفراد الله تعالى في أفعاله؛ كالخلق والرزق والملك والتدبير.

وتوحيد الألوهية: إفراد الله في العبادة؛ كالصلاة والدعاء والذبح والنذر.

وتوحيد الأسماء والصفات: إفراد الله في أسمائه وصفاته، فلا نظير له[٢].

٣١- معنى (المثال المضروب بالصلاة بدون طهارة): وهذا المثال تقريبٌ لفهم هذه المسألة العظيمة، وهي ضرر الشرك على العبادة، فمن صلى بدون طهارة وأطال وخشع و ... لم تقبل صلاته، بل يأثم، وهكذا مَن تعبَّد لله تعالى مع ممارسة الشرك لم تنفعه عبادته، بل هي باطلة، ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ ﴿٢﴾ □□□ □□□□ □□□□□ نَاصِبَةٌ ﴿٣﴾ تَصْلَى نَارًا حَامِيَةً ﴿٤﴾﴾ [الغاشية:٢-٤]، فقد فُسِّرت بالعمل مع الشرك، فيدخلون يوم القيامة النار بسبب شركهم.

٣٢- معنى (الشرك): هو أن يجعل العبد لله تعالى ندًّا في ربوبيته أو ألوهيته أو أسمائه وصفاته.

---

(١) انظر: "الفتاوى" (١/ ٢٣)، "تفسير ابن كثير".

(٢) وقد سبق شرحه في "القول المفيد".

وهو ينقسم إلى قسمين: أكبر وأصغر.

فالأكبر: كل قول أو عمل أو اعتقاد أطلق عليه الشرع وصْف الشرك، وهو مخرج من الملة.

والأصغر: كل قول أو عمل أطلق عليه الشرع وصف الشرك، وهو غير مخرج من الملة.

فمن الشرك الأكبر: الشرك في الربوبية، وصرف نوع من العبادة لغير الله تعالى، وتعطيل أسماء الله سبحانه وصفاته.

ومن الشرك الأصغر: يسير الرياء، وقول ما شاء الله وشاء فلان، وما لي إلا الله وأنت، والحلف بغير الله ...، ونحو ذلك[١].

٣٣- وجوب تعلُّم التوحيد ومعرفة ما يضاده من الشرك:

قال الله تعالى: ﴿ فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ [محمد:١٩]، فأوجب العلم بالتوحيد. ولازمُ ذلك: معرفة ما يناقضه وهو الشرك، وهو الشبكة التي اصطاد بها الشيطان كثيراً من الجن والإنس.

ومما يبين لك أهمية تعلُّم التوحيد وأهمية معرفة الشرك: أن الشرك يوجب لصاحبه الخلود في النار أبداً، ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ الله شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ﴾ [التوبة:١٧]، وعدم مغفرة ذنوبه وخطاياه، ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ [النساء:٤٨].

٣٤- في هذه الجملة مع دليلها - وهي الآيتين المذكورة قبل- ردٌّ على طائفتين:

الأولى: الخوارج وأتباعهم الذين ينكرون تقسيم الشرك إلى أكبر وأصغر، والكفر إلى أكبر وأصغر، بل يجعلون الكبائر من جنس الشرك الذي لا يُغفر.

الثانية: الصوفية وأمثالهم الذين يقولون: إن الشرك لا يكون شركاً أكبر إلا في الربوبية،

---

[١] وقد بسطنا الكلام عليه في: "شرح القول المفيد": الكبير، وانظر "الجواب الكافي" (١٥٠-١٥٥).

ينكرون الشرك في الألوهية إذا كان فاعله لا يعتقد فيمن يعبده الربوبية، فهو عندهم غير الشرك، وهذه القواعد الأربع ردٌّ عليهم.

٣٥- معنى (قواعد): وهي جمع قاعدة، وهي: الأصل الذي يتفرَّع عنه مسائل كثيرة.

وسُمِّيت هذه المسائل: (قواعد)؛ لأن بفهمها يعرف العبد التفريق بين التوحيد والشرك، وبها يقدر على معرفة شُبَه القوم، وكيف الرد عليها بأدلة الكتاب والسنة.

فهذه القواعد لها من الأهمية الشيء الكثير، فاحرص على فهمها.



[الأولى[1]]

أنْ تَعْلَمَ أَنَّ الكُفَارَ الذينَ قَاتَلَهُم رَسُولُ اللهِ ﷺ مُقِرُّونَ بأَنَّ اللهَ تَعَالَى هو الخَالِقُ الرَّازِقُ المُحْيِي المُمِيْتُ المُدَبِرُ جَميعَ الأُمُورِ، ولَمْ يُدْخِلْهُم في الإِسْلَامِ.

والدليلُ قَولُهُ تَعَالَى: ﴿قُلۡ مَن يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ أَمَّن يَمۡلِكُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَمَن يُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَيُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُۚ فَقُلۡ أَفَلَا تَتَّقُونَ ٣١﴾ [يونس:٣١].

* * * *

الفوائد

٣٦- مقصود المؤلف بإيراد هذه القاعدة أمران:

الأول: الرد على القبورية الذين يعبدون القبور بأنواع العبادات، ثم ينكرون أن فعلهم شركٌ تحت حُجَّة: هذا ليس شركاً في الربوبية.

الثاني: التمهيد للقاعدة الثانية بأن شرك الأولين كان في الألوهية، ومن ذلك: طلب الشفاعة والتقرب إلى غير الله تعالى.

٣٧- أن مشركي العرب وغيرهم كانوا مقرين بربوبية الله تعالى - في الجملة- وذلك معروف في أشعارهم وأقوالهم، وقد ذكر الله تعالى ذلك في كتابه في آيات كثيرة، منها ما ذكره المؤلف، ومنها قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَهُمۡ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [الزخرف:٨٧]، وما أشبه ذلك من الآيات.

---

(١) كذا في المخطوطات بدون ذكر كلمة (القاعدة).

٣٨- كان مشركو العرب وغيرهم يمارسون الشرك في الألوهية، فحكم عليهم بالشرك والكفر في آيات كثيرة، منها قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ﴾ [البينة:٦]، الآية. دل ذلك على أن الشرك في الألوهية مخرج من الملة.

٣٩- الإقرار بالربوبية وحده لا يكفي، وكذا الإقرار بالألوهية وحده لا يكفي، فالأول ككفار العرب، والثاني ككفر الردة بالشك في قدرة الله تعالى، فلا نجاة ولا يصح إسلام عبدٍ حتى يقر بأقسام التوحيد كلها.

٤٠- مشركو العرب كانوا يقرون بأن الله تعالى يستحق أن يعبد، ولذلك كانوا يعبدونه بالصلاة والصيام والحج والصدقة والعتق، كما صحت الأدلة، لكنهم أنكروا إفراد الله تعالى بالعبادة، كما قال تعالى عنهم: ﴿أَجَعَلَ ٱلۡأٓلِهَةَ إِلَٰهٗا وَٰحِدًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عُجَابٞ﴾ [ص:٥]، فأنكروا التوحيد في العبادة، فكان شركهم عبادة غير الله مع الله تعالى.

٤١- يستفاد من هذه القاعدة: التفريق بين الربوبية والألوهية، إذ لو كانا شيئاً واحداً لما أنكر الرسل على أقوامهم عبادة غير الله تعالى؛ لأن أقوامهم من العرب وغيرهم كانوا - أغلبهم - يقرون بالربوبية، فلو كان من أقر بالربوبية صار موحداً لكان أولئك الكفار موحدين، وهذا مردود بالكتاب والسنة، فدل ذلك على أن الربوبية غير الألوهية.

٤٢- الرد على من زعم أن كفار قريش كانوا مشركين في الربوبية فقط، فذكر الأدلة على اعترافهم بالربوبية، وكون شركهم في الألوهية ردٌّ عليه، فمن أشرك في الألوهية فقد وقع في الشرك الذي حرمه الله تعالى، قال سبحانه عن قوم هود: ﴿أَجِئۡتَنَا لِنَعۡبُدَ ٱللَّهَ وَحۡدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾ [الأعراف:٧٠]، فظهر أن شركهم في الألوهية.

٤٣- أن مشركي العرب وغيرهم مع اعترافهم بالربوبية كانوا يقعون في الشرك في الربوبية؛ كالتطير، ونسبة نزول المطر إلى النجم، وإنكار البعث والنشور، وإنكار قدرة الله على ذلك كما

قال تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ قَالَ مَنْ يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾﴾ [يس:٧٨]، ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبْعَثُواْ﴾ [التغابن:٧].

٤٤- خطأ من فسر (الإله) بـ(الرب)، وفسَّر (لا إله إلا الله): لا قادر إلا الله، أو: لا خالق إلا الله، ونحو ذلك من صفات الربوبية.

وهذه التفسيرات خاطئة أدت ببعضهم إلى الوقوع في شرك الألوهية لظنِّهم أن ذلك لا ينافي التوحيد (لا إله إلا الله).

٤٥- ذهب جمعٌ من أهل الكلام والصوفية إلى أن الشرك في الألوهية لا يعدُّ شركاً إلا إذا اعتقد في المعبود بعضَ صفات الربوبية، وهذا باطل بأدلة الكتاب والسنة وإجماع السلف.

وصدق فيهم قوله تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُواْ بِمَا لَمْ يُحِيطُواْ بِعِلْمِهِۦ﴾ [يونس:٣٩].

٤٦- أسعد الناس بمعرفة التوحيد ومعرفة حقيقة الشرك، وأحرص الناس على التحذير منه هم أهل السنة والجماعة، ولا يقوم بذلك أحدٌ سواهم على الوجه الأكمل، فلله الحمد والمنة.

٤٧- وفي هذه القاعدة ردٌّ على من أنكر تقسيم التوحيد إلى ثلاثة أقسام، وغالبهم من الصوفية، إذ مقصدهم الخبيث هو إنكار توحيد الألوهية، ليسهل عليهم دعوة الناس إلى عبادة القبور والأولياء، فالتصوف والتشيع ملجأ لشر كبير، ولكل حاقد على الإسلام وأهله، كما أن التحزب ملجأ لكل عميل لأعداء الإسلام والمسلمين.

٤٨- أن الإقرار بالربوبية يستلزم الإقرار بالألوهية، ولذلك حاجَّ الله تعالى المشركين بذلك كثيراً، فالخالق والرازق والمدبر والمنعم هو الذي يستحق العبادة، ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٨٧﴾﴾ [الزخرف:٨٧] عن عبادة الله تعالى وحده.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمْ﴾ [البقرة:٢١]، فالرب هو المستحق للعبادة وحده.

وقوله تعالى: ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ ﴾ [يونس: ٣١].

بعد اعترافهم بالربوبية قال سبحانه: ﴿فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ تتقون الله تعالى بتوحيده وبطاعة رسوله، فرأس الطاعة والتقوى هو توحيد الله تعالى، واتباع رسوله صلى الله عليه وسلم.

****

القاعدة الثانية

أَنَّهُمْ يَقُولُونَ: مَا دَعَوْنَاهُمْ وَتَوَجَّهْنَا إِلَيْهِمْ إِلا لِطَلَبِ الْقُرْبَةِ وَالشَّفَاعَةِ، [نُرِيدُ مِنَ اللهِ لا مِنْهُمْ، لَكِنْ بِشَفَاعَتِهِم والتَّقَرُّبِ إِلَيْهِمْ](١).

فَدَلِيلُ الْقُرْبَةِ؛ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ ۚ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ ③﴾ [الزمر:٣].

وَدَلِيلُ الشَّفَاعَةِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾(٢) [يونس:١٨].

وَالشَّفَاعَةُ شَفَاعَتَانِ: شَفَاعَةٌ مَنْفِيَّةٌ، وَشَفَاعَةٌ مُثْبَتَةٌ.

فَالشَّفَاعَةُ الْمَنْفِيَّةُ: مَا كَانَتْ تُطْلَبُ مِنْ غَيْرِ اللهِ فِيمَا لا يَقْدِرُ عَلَيْهِ إِلا اللهُ؛ وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لاَّ بَيْعٌ فِيهِ وَلاَ خُلَّةٌ وَلاَ شَفَاعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [البقرة:٢٥٤].

وَالشَّفَاعَةُ الْمُثْبَتَةُ: هِيَ الَّتِي تُطْلَبُ مِنَ اللهِ.

---

(١) سقطت من المطبوع، وهي في المخطوطات الثلاث.

(٢) في (أ) (ج) لم يكمل الآية.

وَالشَّافِعُ مُكَرَّمٌ بِالشَّفَاعَةِ، وَالْمَشْفُوعُ لَهُ مَنْ رَضِيَ اللهُ قَوْلَهُ وَعَمَلَهُ بَعْدَ الإِذْنِ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة:٢٥٥].(١).

* * * *

الفوائد

٤٩- مراد المؤلف بهذه القاعدة هو بيان أن شرك المتأخرين عند القبور والأولياء والأنبياء والملائكة هو عينه شرك الأولين عند الأصنام والأولياء والأنبياء والملائكة والجن، لا فرق بينهما.

٥٠- أن المشركين لم يكونوا يعتقدون فيما يعبدونه أنهم يخلقون أو يرزقون أو غير ذلك من صفات الربوبية، إنما اتخذوهم شفعاء وواسطة، قال تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾﴾ [يونس:١٨].

وهذا هو حال عُبَّاد القبورِ والأولياءِ، وقولهم واحد، وهو: نحن نعتقد أن لهؤلاء الصالحين جاهاً عند الله تعالى، فنحن نتقرب إليهم نرجو شفاعتهم.

فإذا اتفقوا في العمل والمعتقد فقد اتفقوا في الحكم، وهو أنهم مشركون.

٥١- إذا كانت شبهة [القربة والشفاعة] لم تنفع المشركين الأولين، بل حُكِم عليهم بالشرك وسفكت دماؤهم، وبيَّن أن مصيرهم الخلود في النار، فكذلك هؤلاء المشركون عُبَّاد القبور، لا تنفعهم عبادة القبور، بل حكمهم كأولئك، ﴿وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓا۟﴾ [التوبة:٦٩]، ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر:٦٥].

(١) في (ج) ذكر أول آية الكرسي.

٥٢- أن اتخاذ الوسائط والتقرب إليها؛ سواء كانت صنماً، أو قبراً، أو وليًّا، أو ... كل ذلك مشتمل على الكذب والكفر، فالكذب في دعوى أنهم واسطة وأنهم شفعاء وأنهم يقرِّبون من الله تعالى.

والكفر في عبادتهم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَـٰذِبٌ كَفَّارٌ﴾ [الزمر:٣].

٥٣- في تفسير الآية: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ﴾ [الزمر:٣] من دون الله تعالى أولياء آلهة يعبدونها ويقولون: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ﴾ باعتقاد الربوبية فيهم، إنما نعبدهم ﴿لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر:٣] ليقربونا منزلة، فإنما حَمَلهم على عبادتهم ليشفعوا لهم عند الله تعالى.

٥٤- قوله: ﴿لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَـٰذِبٌ كَفَّارٌ﴾ النفي هنا لهداية التوفيق، فمن علم الله تعالى منه الكفر فالله لا يهديه، ولا يوفِّقه؛ لسعيه في الكذب والكفر، ومجانبته أسباب الهداية.

٥٥- والهداية قسمان:

أ- هداية الدلالة والإرشاد: وهذه عامة للجن والإنس، كما قال تعالى: ﴿وَهَدَيْنَـٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾ [البلد:١٠]، أي: دللناه وبيَّنا له.

ب- هداية التوفيق: وهذه خاصة بأهل التوحيد، وهم يتفاوتون فيها، كلٌّ بحسب فضل الله تعالى عليه، وبذله لأسباب الهداية، اللهم اهدنا يا كريم.

٥٦- ويُستفاد من قوله: (يختلفون): أن للباطل طرقاً كثيرة مختلفة فيما بينها، ومخالفة للحق أشد المخالفة، وأبطل الباطل الشرك.

٥٧- أن شبهة الشفاعة والقربة والوساطة أعظم شُبَه القوم، فافهمها حتى تردَّ عليهم، وتحذِّر المسلمين من ضلالهم.

٥٨- الشفاعة: هي سؤال الشافع لغيره الخير، أو: توسُّط الشافع لغيره بجلب نفع أو دفع ضر، ونحو ذلك.

والشفاعة إلى الله تعالى: هي دعاء العبد الموحد ربَّه سبحانه وتعالى لإخوانه الموحدين بالخير: لجلب نفع أو دفع ضر.

٥٩- تنقسم الشفاعة إلى قسمين: مثبتة، ومنفية.

فالمثبتة: ما وافقت الكتاب والسنة.

والمنفية: ما خالفت الكتاب والسنة.

والشفاعة ملك لله تعالى، ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا﴾ [الزمر:٤٤].

وتنقسم الشفاعة إلى: دنيوية وأخروية.

فالأخروية: هي التي تكون يوم القيامة، وشروطها:

١- إذن الله تعالى: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة:٢٥٥].

٢- رضا الله تعالى عن الشافع، والمشفوع له، والله لا يرضى إلا على الموحدين، قال تعالى: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء:٢٨]، ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ﴾ [الزمر:٧].

ولذلك نفى الشفاعة للكافرين: ﴿مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ [غافر:١٨]، وقوله: ﴿وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌ﴾ [البقرة:٢٥٤] كذلك، فلا أحد يشفع للكفار والمشركين في الآخرة، وهذا مراد المؤلف بالشفاعة المنفية.

* **والشفاعة الدنيوية إلى الله تعالى، وشروطها:**

١- ألا تخالف الكتاب والسنة.

٢- أن تُطلب من الحي الحاضر الموحد، وذلك بالدعاء، وهو التوسل، ومن ذلك الدعاء للميت: «ما من مسلم يصلي عليه أمَّة من الناس يبلغون مائة لا يشركون بالله شيئاً إلا شفعوا فيه»[(١)]، أي: أُجيب دعاؤهم له بالرحمة.

---

(١) رواه مسلم (م ٩٤٧) عن عائشة رضي الله عنها.

فشفعوا له بالدعاء، ومن ذلك قصة الرجل الأعمى المشهورة[١]، والأدلة على طلب الدعاء من الصالح الحاضر الحي كثيرة.

فإذا عرفت هذا، فاعلم أن الشفاعة الممنوعة هي طلب الشفاعة ممن لا يقدر عليها؛ كالميت والغائب، فلا قدرة للميت على الدعاء ولا الشفاعة ولا غير ذلك، ومثل ذلك الغائب؛ لأنه لا يعلم ولا يسمع من يناديه، فهذا شرك؛ لأنه دعا غير الله تعالى فيما لا يقدر عليه إلا الله تعالى.

٦٠- الذين يطلبون الشفاعة من الأموات والأصنام وقعوا في الشرك من وجوه:

أ- طلب الشفاعة ممن لا يقدر عليها، وهذا شرك في الربوبية لاعتقادهم فيهم القدرة الخفيَّة.

ب- دعاؤهم والاستغاثة بهم، وهذا شرك؛ لأنه صرف للعبادة لغير الله تعالى

ج- التقرب إليهم بالنذر أو الذبح أو غير ذلك، وهذا صرف للعبادة لغير الله تعالى.

والقاعدة: أن ما ثبت أنه عبادة فصرفه لغير الله تعالى شرك أكبر.

٦١- كون المشركين القُدامى يطلبون الشفاعة بالطريقة الشركية، وهم مع ذلك لا يؤمنون بالبعث، فكيف تفسَّر؟

والجواب: أنهم يريدون الشفاعة لهم في أمور الدنيا من شفاء مريض، أو غنى من فقر، أو حصول منفعة دنيوية، أو دفع مضرة دنيوية.

ويقال أيضاً: لعل قولهم هذا فرض - زعموا - لو حصل البعث فسيشفعون لنا.

والأول أظهر وأرجح.

---

[١] رواه الترمذي (٣٥٧٨) وصححه الألباني والوادعي.

٦٢- الواسطة بين الله تعالى وبين خلقه قسمان:

أ- صحيحة: وهي واسطة الرسل وأتباع الرسل في تبليغ الدين، ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى﴾ [يوسف:١٠٨].

ب- ممنوعة: وهي واسطة المعبودات الباطلة التي ادعى المشركون أنهم وسطاء لهم وشفعاء عند الله تعالى.

٦٣- ما يسلكه المشركون في طلب الشفاعة مسدود، إذ أن الشفاعة منفية مع الشرك، وثابتة مع التوحيد، فطلبها بالطرق الشركية كما يفعله عُبَّاد القبور والأولياء غلط محض، فالشرك سبب لمنعهم الشفاعة.

٦٤- الشافع مكرم عند الله تعالى، فكون الله تعالى يأذن في الشفاعة في الآخرة إنما أراد إكرام الشافع وبيان منزلته، لا أن يُعبد مع الله تعالى ويكون شريكاً له تُصرف له العبادة، فالله تعالى لا يرضى أن يُعبد معه ملك مقرب ولا نبي مرسَل.

****

القاعدة الثالثة

أَنَّ النَّبِيَّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- ظَهَرَ عَلَى أُنَاسٍ مُتَفَرِّقِينَ فِي عِبَادَاتِهِمْ، مِنْهُمْ مَنْ يَعْبُدُ الشَّمسَ والقمرَ ومنهُم الْمَلائِكَةَ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَعْبُدُ الأَنْبِيَاءَ وَالصَّالِحِينَ، [ومِنْهُم مَن يعْبُدُ الأَصْنامَ(١)]، وَمِنْهُمْ مَنْ يَعْبُدُ الأَشْجَارَ وَالأَحْجَارَ، وَقَاتَلَهُمْ رَسُولُ اللهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وَلَمْ يُفَرِّقْ بَيْنَهُمْ؛ والدليل قوله تعالى: ﴿ وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِۚ ﴾ [الأنفال:٣٩].

وَدَلِيلُ الشَّمسِ وَالْقَمَرِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيۡلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُۚ لَا تَسۡجُدُواْ لِلشَّمۡسِ وَلَا لِلۡقَمَرِ وَٱسۡجُدُواْۤ لِلَّهِ ٱلَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾ [فصلت:٣٧].

وَدَلِيلُ الْمَلائِكَةِ قَوْلُهُ تَعالَى: ﴿وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ جَمِيعٗا ثُمَّ يَقُولُ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمۡ كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِمۖ بَلۡ كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ٱلۡجِنَّۖ أَكۡثَرُهُم بِهِم مُّؤۡمِنُونَ﴾ [سورة سبأ:٤١]، [﴿ وَلَا يَأۡمُرَكُمۡ أَن تَتَّخِذُواْ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرۡبَابًاۗ ﴾ [آل عمران: ٨٠].

وَدَلِيلُ الأَنْبِيَاءِ قَوْلُهُ تَعالَى: ﴿وَإِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ءَأَنتَ قُلۡتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيۡنِ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أَقُولَ مَا لَيۡسَ لِي بِحَقٍّۚ إِن كُنتُ قُلۡتُهُۥ فَقَدۡ عَلِمۡتَهُۥۚ تَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِي وَلَآ أَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِكَۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ ﴾ [المائدة:١١٦].

وَدَلِيلُ الصَّالِحِينَ، قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ

(١) ما بين المعقوفين ليس في بعض النسخ.

﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾ [الإسراء:٥٧].

وَدَلِيلُ الأَشْجَارِ وَالأَحْجَارِ، قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰ ﴿٢٠﴾﴾ [النجم:١٩-٢٠].

وَحَدِيثُ أَبِي وَاقِدٍ اللَّيْثِيِّ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- قَالَ: خَرَجْنَا مَعَ النَّبِيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- إِلَى حُنَيْنٍ وَنَحْنُ حُدَثَاءُ عَهْدٍ بِكُفْرٍ، وَلِلْمُشْرِكِينَ سِدْرَةٌ، يَعْكُفُونَ عِنْدَهَا وَيُنَوِّطُونَ بِهَا أَسْلِحَتَهُمْ، يُقَالَ لَهَا ذَاتُ أَنْوَاطٍ، فَمَرَرْنَا بِسِدْرَةٍ فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ اجْعَلْ لَنَا ذَاتَ أَنْوَاطٍ كَمَا لَهُمْ ذَاتُ أَنْوَاطٍ فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " اللهُ أَكْبَرُ، إِنهَا السَّنَنُ، قُلْتُمْ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ كَمَا قَالَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ لِمُوسَى: ﴿اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾ لَتَتَّبِعُنَّ سُنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ ".

* * * *

الفوائد

٦٥- مراد المؤلف بهذه القاعدة: بيان أن الشرك ليس مقصوراً على عبادة الأصنام، بل الشرك يشمل كل تنديد؛ سواء كان المعبود صنماً، أو حجراً أو صالحا، ملكاً أو نبياً أو جنًّا، أو غير ذلك.

٦٦- يبين المؤلف في هذه القاعدة أن المشركين القدامى كانوا يعبدون الأصنام، وهي صور رجال صالحين، ويعبدون الملائكة والجن والأنبياء.

فلم يفرِّق الله تعالى بينهم، بل حكم عليهم جميعاً بالشرك والخلود في النار، وهكذا حُكْم مَنْ عبد الأولياء والأنبياء من المتأخرين، فللشرك صور مختلفة، يجمعها صرف العبادة لغير الله تعالى.

فهذه القاعدة أوردها المؤلف للرد على القبورية الذين قصروا الشرك على عبادة الأصنام.

٦٧- من قبح الشرك وضرره: أن أصحابه متفرقون مختلفون في أحوالهم وعباداتهم، لا يجمعهم أصل ولا دين، ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ۝١١٨ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۝١١٩﴾ [هود:١١٨-١١٩]، ﴿ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾ [يوسف:٣٩]، وهذا شأن كل باطل: الفُرقة والتلوُّن، بخلاف أهل التوحيد، فدينهم واحد، ومعبودهم واحد،.

٦٨- الشرك ملة واحدة، وصوره شتَّى، يجمعها صرف العبادة لغير الله تعالى، فإذا ادعى المشرك صحة شركه فدعواه مردودة كدعوى عُبَّاد القبور.

٦٩- الله تعالى لا يرضى أن يُعبد معه ملك مقرب ولا نبي مرسل، ولا رجل صالح، ولا جن، ولا شجر، ولا حجر، ولذلك أمر بقتال جميع المشركين، وبجميع صورهم، ولم يفرق بينهم، ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ﴾ [البقرة:١٩٣] جميع المشركين، ﴿حَتَّىٰ لَا تَكُونَ﴾ في الأرض ﴿فِتْنَةٌ﴾ شرك، ﴿وَيَكُونَ ٱلدِّينُ﴾ العبادة ﴿لِلَّهِ﴾ وحده لا شريك له.

٧٠- **قوله:** (ودليل الشمس) أي: والدليل على أن هناك من كان يعبد الشمس.

والذين كانوا يعبدون الشمس هم قوم من العجم وتأثر بهم قليل من العرب وغيرهم، كانوا يسجدون لها عند شروقها وغروبها، كما ثبت ذلك عن النبي ﷺ ذكر ذلك، وقطعًا لذريعة الشرك نهى عن الصلاة عند طلوع الشمس وعند غروبها.

٧١- النهي عن التشبُّه بالمشركين في الصلاة وسائر الأمور بهم؛ لأن ذلك يؤدي إلى أحد مفسدتين:

الأولى: موالاة المشركين ومودَّتهم، فالمقلد معظم لمن يقلده.

الثانية: أنه يُفضي إلى الشرك، فلذلك وجب سدُّ الذرائع المفضية إلى الشرك.

٧٢- أن من العرب وغيرهم مَنْ كان يعبد الملائكة، وهو مع ذلك كافر مشرك، ﴿وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ﴾ [آل عمران: ٨٠]، أو غيرهم ﴿أَرْبَابًا﴾ معبودات من دون الله أو معه، ﴿أَيَأْمُرُكُم﴾ الرسل ﴿بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾، هذا سؤال إنكار، فالرسل لا يدعون إلى عبادة الملائكة ولا غيرهم؛ لأن ذلك شرك وكفر، بل جاءوا بالدعوة إلى عبادة الله تعالى وحده، وهذه الآية ردٌّ على من نسب إلى الرسل الدعوة إلى عبادة الملائكة والأنبياء، وذلك كاليهود والنصارى وبعض العرب.

٧٣- ومن المشركين القدامى من كان يعبد الأنبياء؛ كاليهود الذين عبدوا عزيراً، والنصارى الذين عبدوا المسيح، وغيرهم، وهذا شرك؛ سواء صوَّرها في صورة صليب أو صنم، أو غير ذلك، كله شرك؛ لأنه صرف للعبادة لغير الله تعالى.

٧٤- أن العبادة الحق لله تعالى، ليس للمخلوق فيها حقٌّ مهما عظمت منزلته، كما قال المسيح: ﴿مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ﴾ [المائدة:١١٦]، فليس له ولا لغيره من الخلق حق في العبادة، بل هي لله تعالى وحده، وصرفها لغيره شرك.

٧٥- أن الأنبياء والملائكة والصالحين لا يرضون أن يُعبَدوا مع الله سبحانه، ولا من دونه، فلذلك يتبرؤون يوم القيامة ممن عبدهم، كما ذكر الله تعالى عن عيسى عليه السلام، وذكر عن الملائكة: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾﴾ [سبأ: ٤٠-٤١].

٧٦- ومن العرب وسائر الأمم مَنْ عبد الصالحين، بل عبادة الصالحين هي أوسع وأول شركٍ وقع في الأرض، بداية من قوم نوح: ﴿وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾﴾ [نوح:٢٣]، فهذه أسماء رجال صالحين.

قال شيخ الإسلام رحمه الله تعالى: «المقصود أن أصل الشرك في العالم كان من عبادة البشر الصالحين، وعبادة تماثيلهم، ومن الشرك ما كان أصله عبادة الكواكب؛ إما الشمس، وإما القمر، وإما غيرها، وصورت الأصنام طلاسم لتلك الكواكب، وشرك قوم إبراهيم - والله أعلم - كان من هذا، أو كان بعضه من هذا، ومن الشرك ما كان أصله عبادة الملائكة، أو الجن ووضعت الأصنام لأجلهم، وإلا فنفس الأصنام الجمادية لم تُعبد لذاتها، بل لأسباب اقتضت ذلك»[1].

٧٧- قوله تعالى: ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ﴾ [الإسراء:٥٧] أي: الذين يدعونهم المشركون من دون الله تعالى، ويصرفون لهم العبادة، وهم نفرٌ من الجن، كان بعض العرب يعبدونهم، فأسلموا وصاروا ﴿يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ﴾ وحده ﴿ٱلْوَسِيلَةَ﴾ التقرب بتوحيده وطاعته ﴿أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾ إلى الله تعالى، ﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ﴾.

٧٨- نزلت هذه الآية في قوم من العرب كانوا يعبدون نفراً من الجن، فأسلم الجن، ولم يعلم عُبَّادُهم بإسلامهم، فاستمروا في عبادتهم [وهو متفق عليه عن ابن مسعود][2].

٧٩- الشاهد من الآية:

- أن الذين عبدوا الجنَّ كانوا مشركين قبل إسلام الجن، وبعد إسلامهم وصلاحهم، لا فرق

---

(١) «الفتاوى» (١٧/ ٤٦٠).

(٢) (خ ٤٧١٤) (م ٣٠٣٠) ولفظ النزول في مسلم.

بين الأمرين، وهذا ردٌّ على القبورية الذين زعموا أن عبادة الصالحين غير شرك.

- وقيل: الآية عامة فيمَن عبد الأنبياء والجن والملائكة، فكل ذلك منكر وشرك، وأن كون المعبود من الخلق صالحاً لا يُغيِّر من الحكم شيئاً.

٨٠- **قوله:** (ودليل الأحجار والأشجار) أي: أنَّ من العرب وغيرهم مَنْ كان يعبدها من دون الله تعالى أو معه، وحكم عليهم بالشرك، والحكم يعمُّ كل فعل كفعلهم من صرف العبادة لغير الله تعالى.

٨١- لماذا عبدوا الأحجار والأشجار؟

- إما لظنِّهم البركة فيها.

- وإمَّا لدعوى أن لها صلة بالله تعالى أو بالصالحين.

وما أشبه ذلك، كما تقدم من كلام شيخ الإسلام.

٨٢- قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ﴾ [النجم:١٩]، أخبروني وهو استفهام إنكاري ﴿ٱللَّٰتَ﴾ بتخفيف التاء - معناه: صخرة مربعة منقوشة بيضاء، وكانت بالطائف، عليها بيت وأستار وسدنة، وأما بالتشديد فوصف لرجل كان يلتُّ السويق للحجاج. ﴿والعُزَّى﴾ امرأة سادنة تُسمى: (العُزَّى) في محل به أشجار، وكانت هذه المرأة تُعبد من دون الله تعالى، كانت لقريش وما حولها، فلما كان فتح مكة بعث النبي ﷺ خالد بن الوليد بجيش، فقطع الشجرة وقتل المرأة[1].

٨٣- ﴿وَمَنَوٰةَ﴾ صخرة كبيرة بقُديد بالمشلل بين مكة والمدينة، وكانت تعبدها يثرب، فلما جاء الإسلام اندثر شأنها.

---

(١) رواه أبو يعلى (٩٠٢) عن أبي الطفيل رضي الله عنه، وصححه الألباني والوادعي.

٨٤- قوله تعالى: ﴿أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾﴾ [النجم:٢١] بعد الآية السابقة قيل: لأن (اللات) مشتقة من (الله) و(عزى) من (العزيز)، و(المناة) من (المنان)، وكانوا يعتقدون أنها بنات الله تعالى، وهذا من أضرار الشرك، فإنه يحمل صاحبه على الجهل والحماقة.

٨٥- وجوب هدم الأصنام والأحجار والأشجار والقباب والقبور المرتفعة والعيون، وغيرها مما يُصرف له شيء من العبادة كما هدمت اللات والعزى، إذ بهدمها يذل الشرك وأهله، وبقاؤها يعتبر عَلَماً من أعلام الشرك الظاهرة، وذريعة كبرى إلى أن تُعبد من دون الله تعالى مرة أخرى.

وقد قال النبي ﷺ: «لا تدع قبراً مشرفاً إلا سويته»، رواه مسلم[١]

٨٦- أن بناء القباب وتعظيم القبور والآثار والمشاهد سبب كبير للشرك، فلما رفعت القباب على القبور ظن الجهال أن للمقبورين قدرة على النفع والضر، فعبدوهم من دون الله تعالى كما عبدت اللات والعزى ومناة، فيا ويل القبوريين من لقاء الله تعالى.

٨٧- حديث أبي واقد الليثي فيه أن الشرك ليس مقصوراً على النذور، والذبح لغير الله تعالى، بل هو أعمُّ من ذلك، إذ من الشرك: طلب البركة من غير الله تعالى.

٨٨- كان المشركون يعكفون عند شجرة من السدر يتبركون بها لظنهم أنها تمنح البركة، يعلقون بها السلاح لظنهم أنها تمنح النصر، فكانت تلك عبادة للشجرة، فذلك العكوف والتعظيم شرك في الألوهية، كما أن اعتقاد أنها تمنح البركة والنصر شرك في الربوبية.

٨٩- معنى البركة: ثبوت الخير ودوامه ونموُّه، ومعطيها هو الله تعالى وحده.

والتبرك: طلب البركة من الشيء.

---

(١) (م ٩٦٩) عن علي رضي الله عنه.

* وهو قسمان:

أ- مشروع: وذلك فيما ثبت به الدليل، كالتبرك بذات النبي ﷺ في حياته وبآثاره، ولا يشرع التبرك بذات أحد بعده؛ إذ لا دليل عليه.

ومن التبرك المشروع: التبرك بالمساجد وأماكن العبادة وأزمانها، والبركة التي جعلها الله تعالى فيها هي بما حَوَته من عبادات ومضاعفة الأجور، لا بذاتها؛ فالتبرك بأحجار الكعبة وغيرها غير مشروع.

ب- ممنوع: شرك أكبر: طلب البركة من غير الله تعالى، فمن اعتقد أن المخلوق يمنح البركة فهذا شرك أكبر - كما سبق - وإن اتخذ سبباً للبركة غير مشروع فتلك بدعة منكرة وذريعة إلى الشرك[١].

٩٠- **قوله:** (ونحن حُدثاء عهد بكفر) أي: قريب عهدهم بمفارقة الكفر، فإن إسلامهم كان في آخر رمضان، وغزوة حُنين كانت في شوال، فالوقت قصير، فلم يكونوا قد تعلَّموا من التوحيد والإسلام الشيء الكثير.

٩١- في الحديث العذر بالجهل، فقد قالوا - أعني: أفراد من مسلمة الفتح - كلمة خطيرة، لكنهم لما علموا أنها شركية لم يعملوا بها، وبادروا إلى التوبة والندم، وفي ذلك وجوب الرجوع إلى الحق.

٩٢- (ينوطون): يعلقون، (فمررنا بسدرة) أي: سدرة أخرى، وذلك لمعرفة هؤلاء النفر الذين طلبوا ذلك الطلب المفجع أن المسلم لابد أن يفارق الشرك، فاختاروا سدرة أخرى، وهذا يدل على حسن نيتهم، لكن قلة العلم حينئذ هو الذي أوقعهم في ذلك الطلب.

---

(١) [«عقيدة التوحيد» (٢٣٤)].

٩٣- أن الشرك ملة واحدة، فلا فرق في التنديد - في الجملة - بين من طلب البركة من الشجرة وبين من طلب إلهاً آخر، إذ أن مؤدى الجميع: صرف العبادة لغير الله تعالى. (قلتم والذي نفسي بيده كما قالت بنو إسرائيل لموسى: اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة):

٩٤- أن اختلاف الأسماء لا يُغيِّر الحقائق، فالشرك كله محرم؛ سواء سُمي تبركاً أو شفاعة أو قربة أو دعاءً، أو ... ما دام أنه صرف العبادة لغير الله تعالى. [كما تشابه مقالة بني إسرائيل وهؤلاء].

٩٥- وفي الحديث خطر الجهل بالتوحيد، فإن من جهل التوحيد متوقع أن يقع في الشرك وهو لا يدري، ومن هنا يجب تعلُّم التوحيد، وفهم ما يضاده من الشرك حتى يكون على بصيرة.

٩٦- خطر التشبه بالمشركين وسائر الكفرة والفجرة؛ لأنه قد يؤدي إلى الشرك والفساد، بل التشبه بالمشركين من أصول الشرك.

٩٧- سرعة رجوع الشرك في بني آدم، لذا وجب كثرة التذكير به والتحذير منه ومن وسائله، كما هو دأب النبي ﷺ حتى في مرض موته، وهو يحذر منه.

٩٨- أهمية معرفة التوحيد والشرك وشُبَه المشركين، وهذا ردٌّ على من ينكر على أهل السنة الاهتمام بذلك من الحزبيين والمبتدعة.

وردٌّ على من قصر الشرك على شرك القصور (شرك الحاكمية)، فيجهد نفسه ويغلو في أمره حتى يسلك منهج الخوارج ونحوهم، ثم يتناسى بل ويزهد في التحذير من سائر الشركيات في الربوبية والألوهية والأسماء والصفات، والواجب التحذير من الشرك أجمعه.

فالله اللهَ يا أهل السنة في الاهتمام بتعلم التوحيد ونشره بالكتب والخطب والمواعظ والرسائل، وبكل وسيلة ممكنة صحيحة، ولا تبالوا بهؤلاء الطغام الذين ينكرون عليكم، فأنتم والله على صراط مستقيم.

٩٩- في الحديث عَلَمٌ من أعلام النبوة، وهو الإخبار بغيب مستقبل، وحصول ذلك، كما في قوله في آخر الحديث: «لتتبعن سنن من كان قبلكم»، أي: تعملون مثلهم، وقد حصل هذا وفشا الشرك حتى زادوا في شركهم على شرك المتقدمين، وهذا حال من يقلد أعداء الإسلام والمبتدعة.

اللهم اعصمنا من الشرك والبدع والعصيان.



القاعدة الرابعة

أَنَّ مُشْرِكِي زَمَانِنا أَغْلَظُ شِرْكًا مِنَ الأَوَّلِينَ، لأَنَّ الأَوَّلِينَ يُشْرِكُونَ فِي الرَّخَاءِ، وَيُخْلِصُونَ فِي الشِّدَّةِ، وَمُشْرِكُو زَمَانِنا شِرْكُهُمْ دَائِمٌ فِي الرَّخَاءِ وَالشِّدَّة؛ وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَإِذَا رَكِبُواْ فِي ٱلْفُلْكِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ [العنكبوت:٦٥]، وَاللهُ أَعْلَمُ. [وَصَلَّى اللهُ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعلى آله وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ].

* * * *

الفوائد

١٠٠- مراد المؤلف: أن شرك المتأخرين هو كشرك المتقدمين من العرب سواء في كثير من النواحي، وفي نواحي أخرى زاد شرك المتأخرين (عُبَّاد القبور) وغيرهم على المشركين القدامى، فهم (أي: المتأخرين) أحق بوصف الشرك وأغلظ كفراً ممن سبقهم في هذا.

١٠١- من الأسباب التي جعلت شرك المتأخرين أغلظ:

أ- أن المشركين الأولين كانوا يشركون في الرخاء ويخلصون في الشدة، كما دلت عليه الآية، والقبورية شركهم دائم في الرخاء والشدة.

ب- أن المشركين الأولين كان غالب شركهم في الألوهية، ويقل في الربوبية، والقبورية وأمثالهم شركهم في الألوهية والربوبية كثير.

في الألوهية: كالنذر والذبح والدعاء واللجوء إلى غير الله تعالى.

وفي الربوبية: حيث نسبوا إلى الأولياء: تدبير الكون، والنفع والضر، وشفاء المريض، وتفريج الكربات.

جـ- أن المتقدمين غالب معبوداتهم صور لصالحين، والمتأخرين غالب معبوداتهم كفرة

وفجرة؛ كابن عربي، والحلاج، وابن علوان، وأمثالهم[١].

١٠٢- شرك المتقدمين من العرب ونحوهم أغلظ من جهة أخرى:

أ- إنكارهم للنبوة، وكفرهم بالقرآن، ومعاداة الرسل.

ب- أنهم عبدوا الأصنام إلى جانب عبادة الصالحين والأنبياء.

وأما الملاحدة من الهندوس والبوذية والفلاسفة ونحوهم، فهم أغلظ من جميع الوجوه.

١٠٣- كثير من المتأخرين لا يعرف معنى (لا إله إلا الله)، فهو يرددها وهو يمارس الشرك عند القبور وغيرها، وهذا ضرر كبير.

١٠٤- خطر السماع من أهل البدع، فهؤلاء الصوفية والرافضة وبعض الأشاعرة يزيِّنون الشرك، ويسمونه تعظيماً للصالحين، ويوهمون الأتباع أنهم يغيثون الملهوف، وهذا هو سبب لجوئهم إليهم في الشدائد، وهذا ثابت عنهم في كتبهم وغيرها.

****

[١] راجع كتاب كشف الشبهات.

* نصيحة *

إليك أخي طالب العلم أُقدِّم هذه النصيحة:

١ - الاهتمام بالتوحيد والعقيدة؛ علماً وتعلُّماً ودعوة.

٢ - البداءة بدراسة الأسهل، ثم الأعلى: [مفتاح العقيدة - القول المفيد الصغير - الأصول الثلاثة - القواعد الأربع - كشف الشبهات - ا لأصول الستة - كتاب التوحيد - نواقض الإسلام]، ثم: [اللامية - الحائية - اللمعة - القواعد المثلى - الواسطية - الطحاوية - التدمرية].

٣ - احرص على حفظ متون الكتب التي تدرسها، فذلك يسهل فهمها بإذن الله تعالى.

٤ - احرص على تلخيص الدرس ومراجعته وحفظ التعاريف والضوابط.

٥ - استمر في تلقي الدروس، فمن سار على الدرب وصل.

تم ولله الحمد والمنة

وصلى الله وسلم على محمد وعلى آله وصحبه

****

الفهرس

❊❊❊❊